

الصحة مكون أساسي في حياة الإنسانية وتوازنها، بالمقابل يبقى المرض والألم والوباء حتمية أيضا خلقت من طبيعة جسد هذا الإنسان وتكوينه وعيشه النفسي والاجتماعي، أو من خلال ظروف منشأه ومحيطه المتفاعل فيه.

ومنه فالصحة أكاديميا هي " كلية ينعم بها الجسم بكامله، وقد يقتصر أمرها على عضو ما، وهي عند الأطباء هيئة طبيعية بها يكون الإنسان في مزاجه وتركيبه، بحيث تصدر عنه الأفعال كلها صحيحة سليمة"، "والوقاية إنما تكون بالأغذية والأدوية وتدبير ما لا بد من تدبيره كالإستحمام ومراعاة تغيير المناخ..."، أما المرض " فهو وضع مناقض للصحة فهو حال للإنسان غير طبيعية يستضر عنها في أفعاله، والصحة والمرض كلاهما يعنى الطب بهما سواء بإزالته وإبراءه، وأما في الصحة فبحفظها وتثبيتها"، أما الوباء " فهو مرض عام للناس غالبا ما يكون عن سبب مشترك..1"

واختصارا لكل هذا فإننا نقول إن العلاقة وثيقة دوما ومتداخلة بين صحة الفرد ومرضه وواقعه الاجتماعي المعاش من جهة، وطبيعة الظروف البيئية والاجتماعية والإقتصادية المحيطة بهذا الجسد الإنساني بشكل يجعل طبيعة العلاقة هذه متأرجحة بين تأثير الإنسان فيها وتأثره بها.

ولما كان هذا الجسد الإنساني فاعلا أساسيا في صناعة التاريخ بحضاراته ونكساته، فإننا سنتناول بالدراسة والتحليل لمصير تاريخ لا يزال مرتبط بالذاكرة الألفية يتعلق بالحدث الإستعماري الذي ميز القرون الخوالي خصوصا، وكرس صورته القاتمة في صفحات تاريخ الحق الإنساني في الحياة، حيث وشم جسدها بكدمات الوباء والأم المرض، ونكبات الأمعاء الخاوية وسوء التغذية....

إنه باختصار تصوير لزمان لم يولي حتى الآن، ويبقى فاعلا في العيش الإنساني إلى اليوم، وإن كنا سنعطي المثل الأبرز والأدل لهذا الزمن التاريخي من الحقبة الإستعمارية، فإن المجتمع الجزائري يبقى واحدا من الأمم التي إكتوت وعرفت حقيقة معنى المعاناة سواء على مستوى جسد مجتمعها بعمومه، أو على مستوى جسد أفرادها وعيشهم اليومي.

لقد عرف الجسد الجزائري كل أنواع الحرمان واللاصحة التي صوحت مع وباء الإستعمار وويلاته، حيث لم يستكن هذا الجسد للراحة طيلة فترة 1830م إلى 1962م وما قبلها، بل نجزم بالقول أن الكثير من أجساد الجزائريين، بل حتى الأرض والحيوان لا تزال عرضة لقذرات الإستعمار ودسائسه الوبائية التي تركها موتا ودمارا ومتشكلة في أغلبها إلى اليوم من الألغام والإشعاعات النووية.

ومنه فإن العودة بالدراسة للمشكل الصحي للجزائري خلال الإستعمار، واحد من المواضيع التي لا بد أن تطرح بجدة في ميدان بحثنا التاريخي والاجتماعي الأكاديمي، نظرا لكل ما شابها من تغييط أو دس وإخفاء وتستر من طرف فرنسا.

ومن هنا جاءت إلتفاتة ملتقاكم هذا كعمل ونظرة علمية صحية لضرورة النقاش والدراسة لكل الجوانب المستورة أو المغلوطة من التاريخ الإستعماري بالجزائر وأثارها على وضع الجزائري خصوصا منه المعيش الصحي.

وأهمية منا للموضوع فإننا سنحاول طرح الواقع الصحي بالجزائر خلال الحقبة الإستعمارية للدراسة محددين مخلفاته وتأثيراته المختلفة على جميع مستويات البنية الاجتماعية والصحية والإقتصادية والمعنوية للجزائري ومدعين ذلك بتكميم إحصائي ذي مصادر متنوعة تحدد واقع العلاقة بين مجالات المجتمع المستعمر المختلفة والوضع الصحي الراهن في تلك الفترة، من جهة أخرى سنتناول بالدراسة للأطر البديلة التي لجأ إليها الجزائري خلال تلك الفترة ونحصرها في أطره التقليدية المقدسة سواء منها (الزاوية، الضريح، الطب الشعبي والمعارف والمعتقدات والتقاليد الشعبية، وحتى ممارساته المدنسة

المرتبطة بالشعوذة والسحر...، ومختلف الطقوسيات التي سخرها ووظفها الجزائري كآلية لخفض كربيه وحزنه وآلامه وأسقامه التي أصيب بها ونغست عيشه الإجتماعي وجسده المادي والروحي خلال الحقبة الإستعمارية.

1- إشكالية الصحة والمرض في الماضي الإستعماري بالجزائر:

الصحة واحدة من أهم الأسس البنيوية التي أرقت الجسد الجزائري المستعمر، نظرا لكل ما أحاط بهذه المرحلة التاريخية من عمر الجزائر من تدمير وإفناء مس الجانب المادي والمعنوي في الكيان الجزائري، وهو ما كان من مخلفاته الطبيعية انهيار صحي لم يسبق له مثيل، في المقابل فقد مارس الإستعمار بمختلف مؤسساته تعميم ممنهجا لحجم الضرر والمعاناة والإبادة التي أصابت الجزائري، بالمقابل أشاع أهمية حضوره الحضارية والطبية للمجتمعات المتخلفة التي إحتلتها.

وإذا كان دخول الإستعمار في أوله مبنيا على تسخير إيديولوجية فكرية ضمت الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا واللغويات والأركيولوجيا... بما يهدف منه إلى إلحاق الضرر المعنوي التقريفي والتمزيقي للجسد الجزائري وتجريحه وفق ما يخدم الوجود الإستعماري وهيمنته، فإنه أيضا نفس العمل أداه مجال الصحة والطب الإستعماري بشكل أعطى لفرنسا الأمل في إفناء شعب متوحش وتعويضه بأخر متحضر كما يقول علماءها وجنراتها العنصريين.

ومنه إذا توحدت توجهات فرنسا ومعمرها وجنراتها وأطبائها وفق منطق عنصري إفنائي للآخر يقصي الجزائري من كل أشكال الرعاية والإهتمام، وأصبح معه المجال واضحا لسياسة مبيتة ومبنية على إقصاء الجزائري وإبادته وتجويعه تمهيدا لإفناؤه، ومن هنا نعود لتساؤلات *دافيد أرنولد* في كتابه " *الطب الإمبريالي*" حول كون: هل كان الطب الغربي في المستعمرات حقا طبعا عقلانيا وإنسانيا كما يفترض كثيرا، وهل يعد حقا إحدى فوائد الإمبريالية التي لا يمكن إنكارها؟، ألا يمكن أن يكون هذا الطب في الحقيقة سلاحا آخر من بين ترسانة الأسلحة الإيديولوجية للحكم الأجنبي التي يستخدمها في محاولته للهيمنة؟، لمصلحة من استخدم هذا الطب؟ هل كان أساسا لمصلحة أفراد الإدارة الإستعمارية والجيش، أم لمصلحة شعوب المستعمرات، أم للإثنين معا؟2.

1- الديموغرافية الإستطانية وتأثيراتها السوسيو صحية على الجزائري:

إن سياسة الإستيطان الفرنسية تطلبت انتزاع الأرض الخصبة من الجزائريين وإعادة توزيعها على المستوطنين (بعد سنة 1840 صدر ما مجموعه 2.703.000 هكتار من الأراضي الخصبة، ووصلت نسبة الأراضي المصادرة سنة 1960 إلى 90% من الأراضي الصالحة للزراعة بالجزائر، فيما قدرت مصادر أخرى حجم الأراضي المغتصبة عن طريق البيع والانتزاع بـ 5.056.000 هكتار زائدة عن تخلي الجزائريين عن ملكية 2.500.000 هكتار بسبب ظروف الحرب والمصادرة ولكن إلى حدود سنة 1920 فقط، ووصلت سنة 1936 إلى 7.700.000 هكتار أي 83.6% من الأراضي الجزائرية)، كل هذا اضطر الكثير من الجزائريين إلى الهجرة إلى المناطق الفقيرة والنائية في الجبال والصحراء والخارج (250.000 مهاجر بفرنسا سنة 1954) ويجب أن ندرك عمق وخطورة هذه السياسة عندما نعلم أن معظم السكان يعملون بالزراعة وهي مصدر رزقهم الوحيد والأساسي حيث قدر عددهم آنذاك بـ 70% من إجمالي الساكنة3، ولذلك أدت عملية نزع ملكية الأرض منهم إلى خلخلة عنيفة في البناء الإقتصادي والسكاني والغذائي ومن ثمة الصحي للساكنة المحلية، وامتدت آثارها لفترة زمنية لمدة طويلة متواصلة ومؤازرة بفعل الحرب وسياسة الأرض المحروقة وما صاحبها من ظروف طبيعية أدت إلى انتكاسة ديموغرافية للجنس الجزائري لم يعرف لها التاريخ الإستعماري سبقا.

حيث انخفض عدد الجزائر بين 1830 و1872م من 03 ملايين إلى 2.125.000 نسمة، أي موت ما يقارب 875.000 شخص4، بسبب الجوع والفقر والأوبئة (سنوات 1844 و1851 و1866 و1868)، في مقابل تزايد عدد المعمرين الذين بلغوا في حدود سنة 1911 حوالي 921.931 نسمة منهم 562.931 فرنسي و359.000 أوروبي5، ووصل عددهم بين سنوات 1951 و1956 حوالي 1.042.500 نسمة، وهو ما كان من مخلفاته تزايد في حجم التأثير الإقتصادي والإجتماعي والصحي على الجزائري سواء في توزيع الغذاء أو الأرض، فأقصى من الاستفادة من الرعاية الصحية التي خص

بها المعمرون في أغلب الأحيان، وحصر الإهتمام الطبي الفرنسي بالجزائري في لحظات الوباء لخوفهم من العودة، حيث كانت تشيخ الأطروحات الإستعمارية إهتمام التطبيق الفرنسي لحياة الجزائري من خلال بعض أعمال التمريض بالمناطق النائية بتلقيح الأطفال مثلا والذي كان من أهدافه الكامنة كما يقول أطباء فرنسا: "حتى يزداد تعلق الأهالي بالوطن الفرنسي"6، أكثر من ذلك فقد إعتبر هيوبرت ليوتي الطب أداة للمساعدة في إرساء السلطان الفرنسي في إفريقيا، ثم زعم قائلا "العذر الوحيد للإستعمار هو الطب"7، ويبقى الطب الفرنسي في الأخير أداة أساسية للتغلغل في المجتمع الجزائري8.

فكيف يحصل ذلك وقد خص للمريض الجزائري سنة 1939 سرير لكل 4581 شخص؟9(لم تراعى إحتياجات الساكنة الجزائرية في توزيع مؤسسات وأطر الرعاية الصحية، بل إن توزيعها كان وفق مجال حضور المستوطن)، ومنه فإن قتامة الوضع الصحي والغذائي للجزائري لم يسعى لتحسينه بقدر ما كان لحظة لإبتهاج المعمرين وجنرالاتهم وأملهم في إنقراض الساكنة الجزائرية هكذا، حيث لم تنفع حملات التلقيح ولا الرعاية الصحية المزعومة من ارتفاع نسبة الوفيات في وسط الجزائريين خصوصا منهم الأطفال (50 وفاة للألف)، وزادت الظروف الطبيعية والبشرية من مصادرات الأراضي الزراعية إلى نقشي الأوبئة والأمراض المعدية (الجدري، السل، التيفوس، الكوليرا..) وإلى حدوث مجاعات عديدة مثل مجاعة سنة 1920م. 10

وفي زمن لاحق لهذا التاريخ (1936) أصبح المجتمع الجزائري عاجزا عن توفير قوت أفراد، حيث قدرت كمية الحبوب التي تتوفر لكل ساكن سنة 1871 بخمسة قنطارات سنويا، ولم يلبث هذا المقدار أن إنخفض إلى أربعة قنطائر سنة 1900، وإلى قنطارين ونصف سنة 1940، وقنطارين فقط سنة 1946. 11

وبالإضافة إلى تبيعات ذلك الصحية، فإن الجزائري أصبح خماسا في أرضه حيث إرتفع عددهم بين سنة 1901 من 350.715 خماس إلى 634.600 خماس سنة 1930، في حين إنخفض عدد الملاك الزراعيين من 620.899 ملك سنة 1901 إلى 617.544 ملك سنة 1930م، وتبعاً لذلك أيضا انخفض متوسط الإنتاج السنوي من الحبوب من 19.1 مليون قنطار في الفترة الممتدة بين 1901-1910 إلى 14.8 في الفترة الممتدة بين 1941 و1950 نتيجة لتفتت الملكية الأهلية التي أصبحت تبلغ في المتوسط 11.6 هكتار مقابل 119 هكتار للملكيات الإستعمارية، فضلا عن تقهقر عدد رؤوس الأغنام من ثمانية ملايين سنة 1865 إلى خمسة ملايين فقط سنة 1945م، وقد نتج عن هذا التقهقر والعجز تبيعات من أهمها المجاعات بالتوازي مع إنتشار بعض الأمراض الوبائية القاتلة وذلك خلال سنوات 1887 و1893 و1917 و1920م. 12.

1-2- الحرب العسكرية ومخلفاتها على الصحة الجسدية للجزائري:

لقد كانت كلفة العسكرية الفرنسية في حربها على الجزائر كبيرة في جميع مستويات الحياة الإجتماعية وإن نخص في هذا المقام الجانب الصحي للجزائري، فإنه إرتبط تبعاً لحجم الدمار والتأثر وكان ضمن فاتورة بلغت فيها المعارك بين سنوات 1830 و1871 وحدها فقط 340 معركة قتل وجرح وشرذ خلالها الآلاف 13، أكثر من ذلك فقد قام مثلا العقيد بيليسيه في حدود 1845 بعمل قاس جدا وهو إضرار النار حول الغيران التي إلتجأت إليها قبيلة أولاد رياح...فمات الرجال والنساء والأطفال في تلك الظروف. 14، ويقول مونتانيك بعد غزوات قام بها إلى معسكر "لا يمكن تصور ما فعلناه بأولئك السكان المساكين: لقد حرمانهم مدة أربعة أشهر من كل وسائل عيشهم فلم يتمكنوا من حصاد قمح أو شعير، وأخذنا منهم مواشيهم وخيمهم أفرشتهم ومواعينهم، بكلمة واحدة أخذنا كل شيء يملكونه"15.

من جهة أخرى وبصريح العبارة يقول جنرالات فرنسا "إن المجاعة التي تنجر حتما عن تلك العمليات (الحربية)، فإنها تنم العمل العسكري وتضرب عشوائيا كل العرب الذين نجوا بحياتهم من الغارات، فهي ليست إذا أفة طبيعية، بل على بالعكس مبيته ومستعملة عن قصد كوسيلة من وسائل محاربة العرب من قبل جيش إفريقيا"16.

وكتب بوسيير Bussière في دراسة مطولة في مجلة « *Revue des deux Mondes* » "إن الدور الحاسم الذي تقوم به فرقة المشاة التي تقوم من بين ما تقوم به إكتشاف المخازن وإفراغها، وتهديم

الخراب، وإحراق أشجار الزيتون والتين وكل زرع"، وينتهي وصفه الذي يبدي فيه إعجابه بالعمل الفذ للجنرال بيجو "إنه يمثل تلك العمليات استطاع الفرنسيون إنهاك قوى عدو يبدو وكأن لديه أجنحة، ومحاصرته والقضاء على القبائل الرحالة بالإعياء والإنهاك أكثر مما فعلوه بالحديد والنار"، وفيما يتعلق بالمدينين الرجال والنساء والأطفال الذين لم يتمكنوا من الفرار، فمصيرهم الأسر والحبس في مناطق يتحكم فيها الجيش، وفي طريقه إليها الكثير منهم يموت في الطريق بسبب الظروف التي يفرضها عليهم الجنود، حيث لخص لامارتين الفاجعة بقوله "لم يبق من 7000 نسمة من نساء وأطفال ومسنين وجنود عرب سوى 3000 فقط والباقي مات من الحرمان في الطريق. 17

ويكتب هريسون قائلا "سمعت أحد ألمع ضباط جنود إفريقيا يروي أنه تناول الغذاء مع قائده الجنرال، دون أن يفكر أنه في ركن من أركان خيمته توجد أكياس مليئة برؤوس مقطوعة"، وفي إحدى المعارك أكد أن جنوده عادوا ببرميل مليء بالأذان"، وكان سبب تلك الغنائم أن الجنرال جوزيف يكافئ نقدا الجنود على ذلك. 18

يضاف لكل هذا أن وضع الجزائريون في محتشدات بلغ عددها سنة 1958 حوالي 3425 19 محتشد تتعدم فيه أبسط الظروف الصحية، ووصل عدد الجزائريين المحتشدين والمجمعين في مراكز بعد ذلك في حدود سنة 1960 إلى حوالي 2.157.000 أي ربع السكان حينذاك 20، مع كل ما يعنيه الحجز من حرمان وتدمير للصحة الجسدية والعقلية. ومنه كانت هذه الحرب الفتاكة والمتواصلة العامل الرئيسي في كل مآسي الجزائري الصحية والمعيشية وما صاحبها من أوبئة وأمراض وهلاك.

1-3- الحرب النفسية وانعكاساتها البسيكو باتولوجية على الجزائري:

بدورها الحرب النفسية كان لها دورها في تأزيم الوضع النفسي الصحي للجزائر، وقد شكل شرف الجزائر إحدى المواضيع التي لعبت على أوتارها الإيديولوجية الفرنسية وضغطت من خلالها أملا في مسخ الشخصية الجزائرية إلى شخصية مرضية منحطة، ومنه كانت المرأة أهم المستهدفين، ووصف الجزائري بالفاجر والشاذ نفسيا واللواطي، وعندما قام توكفيل بأول سفيرة له إلى الجزائر سنة 1842م أراد التعرف على أكثر طبائع الأهالي فسأل النقيب سان سوفور *Saint Sauveur* عن مدى نقشي تعدد الزوجات، فكان جوابه نعم، وبالطبع العديد من الرجال لا يملكون نساء وهذا هو سبب الشذوذ الجنسي حسب "21، ووصل الأمر أن قام الطبيب جاكوبوس *Jacobus* بتشريح جثامين عدد من العرب الموتى، خصوصا ما تعلق بأجهزتهم التناسلية التي إعتباها عضو معبر وفعلي للممارسات الجنسية غير العادية واللا-أخلاقية التي تميز العربي "22.

من جهة أخرى ألف لازناويرس *Lasnavers* كتاب في الطب والفيزيولوجيا في النصف الأول من القرن 19م ضمنه حول العربي، وبعد أن تطرق لوصف روحهم العدوانية والإنتمائية وتعاطيه للشهوات، قال "يفرز ذكور العرب الأقوياء رائحة أمونيكية تتأثر بها على الخصوص النساء الأوروبيات اللاتي ينتمين للنوع العصبي، ومن هنا فهن حساسات جدا، وقد يؤدي بهن إلى حد الوقوع في نوبات هيبستيرية، ومنه فهذه الإفرازات جعلت العربي ذا مزاج سريع الغضب والتهور "23 وأستدل بهذا عن خطر العربي على المستوى الصحي الجسدي والخلقي، حتى إنه أعتبر كائنا يثير الإشمئزاز وخطير على الأوروبيات، وعلى الجنس الأبيض برمته كما يقول هؤلاء، وطلب بالمقابل من الدولة الفرنسية إتخاذ إجراءات صحية ووقائية لتجنب الإختلاط المخيف مع العرق العربي، هذا الذي وصفه لويز ميشال في طريقة نومه وتشرده بالقذارة في قوله "تختلط الأجسام في أبشع صورة وفي وسخ يغم القلب.. يمارسون الدعارة والإدمان على الكحول والتطرف والجهل... إنهم بإختصار كما يقول قوم لوط يعيشون على قمامات "24، ووصل الحال بموباسانلا بإتهام العربي بإغتصاب الموتى حيث يقول "وقد عرف الأمر عندما تحدث جريمة قتل وتضطر العدالة إلى تشريح الجثمان، فتكشف أن القاتل اعتدى على قتيله بعد موته.

من جهة أخرى تصور لنا النظرة الإستعمارية صورة المرأة الجزائرية على أنها تلك المرأة الفاجرة التي تمارس البغاء، وتبيع نفسها لمن يريد شراءها 25، ولنتصور كما يقول هؤلاء أثر ذلك على الصحة الجسدية والخلقية والعمومية لفرنسا ما وراء البحار، ومنها انتشر كما يقول هؤلاء داء الزهري والمرض الخبيث (السيدا) الذي ضرب الأوروبيين الآتين من فرنسا من عرب الجزائر، غير أن هؤلاء تناسون أن أعظم ضباطهم قتلهم نساء جزائريات بإسم الدعارة.

كتب الدكتور ريكو قانلا "الأهالي (بالجزائر) مهددون بالإنقراض الحتمي والقريب، ولن يكون ذلك الإنقراض بسبب التهجير أو أي سياسة إنسانية أخرى، بل سيكون لأسباب أخرى كلها خارجة عن إرادتنا... فالشعب العربي يموت... بسبب جموده وإتكاله أفكاره السيئة. يمكننا القول أنه يموت بسبب رذائله وفجوره" 26 وبرأيه إذا لا داعي لاستعمال العنف والمجازر للتخلص من العرب، فقوانين الطبيعة، أو بالأحرى القوانين التي يدعي أنها طبيعية كفيلة بذلك.

وقد نشط من جهة أخرى مجموعة أطباء النفس بزعامة الطبيب أنطوان بورو *Antoine Porot* وقدموا دراسات بثوها في أجيال من الأطباء النفسانيين خلاصتها لرجال الشمال الإفريقي منزلة دون الرجل الأبيض الغربي، وأنه اعتبارا لما يدعون أنها معطيات علمية: مجرم بالطبع، هدام بالغريزة، مزاجي قلب، يكون تارة لك أكبر صديق، وتارة أخرى أكبر عدو - كسول، كذاب، ليس له تفكير منطقي، وهو ميال إلى سفك الدماء

كل هذا التمييز والعنصرية المنهجية ولدت بالمقابل الرد العنيف من الجزائري، ومميزات شخصيته إلى اليوم كما يفسرها بعض الدارسين هي نتاج لكل الظروف التاريخية (الإستعمارية وما صاحبها من ضغط نفسي رهيب) التي مر بها سلفه، والتي أعطت في الأخير هذا الفرد الجزائري.

ويذهب لذلك الطبيب *Frantz Fanon* الذي ندد بترهات أطباء فرنسا النفسانيين وبين أن سلوك الرجل الشمال الإفريقي ليس نتيجة نظام عصبي وراثي، أو خاصية مزاجية غريزية، ولكنه نتيجة وضع استعماري 27.

4-1- الأزمات البيئية والطبيعية وأثرها في ديموغرافية الجزائر:

بدورها الظروف البيئية كان لها دورها على صحة الجزائري، حيث سبب الجوع والفقر والأوبئة (سنوات 1844 و 1851 و 1866 و 1868)- كما ذكرنا ذلك سالفا- موت ما يقارب 875.000 شخص، بالمقابل فرض الفرنسيون الحصار على الجزائريين خوفا على أبنائهم من انتقال العدوى الأمراض التي كان يحملها العرب نتيجة كل هذا حيث اندمج الفعل الإجرامي للمستعمر مع الظروف الطبيعية (القحط والجفاف والأوبئة) 28مخلقة في الأخير هلاك كل هذا الكم الهائل من الجزائريين.

5-1- علاقة الطب الإستعماري بالتبشير المسيحي بالجزائر:

لقد كانت المستشفيات والمستوصفات على قلة الجزائريين الذين كانوا يعالجون بها حلقة مركزية في الإستراتيجية التبشيرية، حيث توحد المبشرون في هويتهم مع الطب الغربي لأجل تنصير ما أمكن من الجزائريين فقد اعتبر الطبيب أداة قيمة وفعالة للإستقطاب والإحتواء والجذب، ومن ثم تم تسخيرها في المجال التبشيري.

يقول تقرير أحد الإرساليات التبشيرية: " هناك بعض المجالات للإرساليات يبدو أن الأطباء هم الذين يستطيعون إكتساب أي نفوذ كبير فيها، وثمة كراهية متعصبة للمسيحية لا يمكن هدمها إلا بإظهار التعاطف لما يحدث من آلام للجسد مصحوبا بالقدرة على تخفيفها، ويبدو أنه لا يمكن إلا من خلال العمل الطبي وحده العثور على ثغرة للنفاذ إلى قلوب هؤلاء الناس"، ومن هنا كانت السياسة الطبية الفرنسية مبنية على تنصير ما أمكن من الشعب الجزائري خصوصا منهم المرضى الذين عولجوا من طرف أطبائها المبشرون، حيث كان هذا العمل وفق قيم الإحسان والأعمال الخيرية والطبية التي هي في الأخيرة وسيلة خادعة اتخذها الأطباء المبشرين وأعاونهم لبلوغ أهدافهم، تلخص الوضع صحفية إنجليزية زارت المغرب في العهد الفرنسي عن إحدى الراهبات بقولها " إن عدد كبير من النساء قدم إلى المستوصف منذ رمضان، وكن يستمعن إلى ما أقول، وكان يبدو عليهن عدم المبالاة... وجاءتني سيدة للعلاج وسألتنني بعض الأسئلة عن البعثة، وإنتهى بي الأمر إليها عن الإنجيل فإلتفتت إلى أختها وسألته: هل يجلس إليها المسلمون للإستماع إلى هذا الكلام، فأجابته بأنهم مجبرون عليه وإلا فلا دواء" 29، وبذلك كان العلاج الجسماني لبعض الجزائريين يبدأ بالوعظ العقائدي (المسيحي) وبمخاطبة الضمائر قبل الأبدان أملا في تنصير ما أمكن من هذا الشعب وإلحاقه كمواطن من الدرجة الرابعة بفرنسا الأم.

2- التدبير الصحي للجزائري في الزمن اللاصحي:

إنه من الطبيعي أن تشكل الأزمات الصحية إحدى اللحظات التاريخية لإنفجار القدسي في حياتنا وحاجتنا إليه، فأمام التأزم ليس من سبيل إلا المقدس، ومنه كانت الأمراض والعلل والأوبئة واحدة من الروابط التي أعادت أهات الإنسان الجزائري وبحثه عن العلاج في ميراث أجداده القدسي والثقافي والعرفي والطبي، الذي كان دوما حاملا لكل هذه المعاني المبحوث عنها، ففي ظروف الشدة المرتبطة بالزمن الإستعماري ببلادنا وسياساته الإفتائية للجسد الجزائري، وجد هذا الأخير تدبيره الصحي في بركة الأولياء وأضرحتهم، وفي إتقانه لتطبيب نفسه بمعرفته لعدد من الأعشاب وأدوارها الصحية، حتى أنه لجأ في أحيان أخرى أمام استعصاء علاجه لمقدسه السحري أملا منه في الشفاء، وأما هول الوضع هذا تطرح لنا الصورة واضحة تماما في الظروف اللاصحية بكل مآسيها التي تدبر منها الجزائري وجوده الصحي - العلاجي، وقد اعتمدنا في تحديد هذا على الرواية الشفوية المتداولة باعتبار النقص الفادح والتعيب الممنهج أو المغلوط من طرف دارسي الفترة الكولونيالية للوضع الصحي بالجزائر من دراساتهم.

1-2- الصحة والطب الشعبي خلال الفترة الإستعمارية:

مثل مجال العلاج الشعبي ومعرفة أدورا ومنافع العديد من الأعشاب الطبية واحدا من الحلول التي تدبر بها الجزائري حاله الصحي ومعوضا لنفسه لجوئه للطب الإستعماري ومؤسساته، فأصبحت بذلك معرفته ووراثته لكثير من أدورا هذه الأعشاب حلا لمشاكله الصحية وحتى الغذائية، فالبصل والثوم غذاء ودواء، مثلما السواك والشاي والزعتر والعرعار... نباتات طبية تعرف إليها الجزائري منذ الأزل، وأصبحت من العناصر الصحية التي لا غنى عنها.

2-2- الصحة والمقدس السحري خلال الفترة الإستعمارية:

المجال السحري واحد من الميادين والبنى التي تشكل معتقد الجزائري، كما أنها من الحلول التي لجأ إليها أما استعصاء حله مشاكله الصحية من جهة ولسيادة الأمية في أوسط الكثير من فئاته الشعبية من جهة أخرى (86% عند الرجال و95% عند النساء سنة 1954) 30.

وتتجلى أركان علاقة الصحة بالسحري في الزمن الإستعماري في أغلب أحيائها باستعمال المريض خصوصا منه النسوة لعديد المواد كالبخور والجاوي والشمع والتمايم والحروز، وتراب الأضرحة وتستعمل هذه الأشياء في مواضع كثيرة، كما تقدم القرابين..، كل هذا يعكس في الأخير بحث متعدد الأهداف بين العلاج والوقاية والتطهر، يفسر ذلك *مارسيا إلباد* بقوله " أن التكرار البسيط بمساعدة الخيال النشط لبعض الرموز الدينية [...] يترجم بتحسن نفساني قد يفضي في نهاية المطاف إلى العلاج "31، ومنه تحصل البركة العلاجية، عبر وسائط النية التي هي في أصلها إرادة مضمرة وتركيز قوي في اعتقاد كامل، وكما يقال " النية بالنية والحاجة مقضية ".

3-2- علاقة الصحة بالمجال القدسي (الأولياء والأضرحة):

للحديث عن العلاقة هذه نعود من حيث بدأ التصوف كظاهرة إنسانية أفرزها مجتمع متأزم وخائف، يواجه بها خوفه من الطبيعة 32، ومن جعلتها أزمامته الصحية: المرض، الوباء، الأسقام المختلفة التي أصابت جسد الجزائري وخرت قواه المادية والمعنوية.

ومنه فقد ارتبطت البنية الصحية للجزائري خلال الحقبة الإستعمارية في كثير لحظاتها بالبنية القدسية للأولياء وأضرحتهم، وغدى هذا الأخير مجالاً تطبيبياً بامتياز، في مقابل طب مادي استعماري مدنس في المخيال الشعبي، يصعب ولوجه ومفقود في الكثير من الأحيان إذ كان من الصعوبة الظفر بلحظة علاج، أو غير مرغوب فيه في أحيان أخرى، اعتباراً من النظرة السابقة الذكر (مدنس استعماري - كافر).

وفي خضم هذه المظالم والتأزمات خصوصا منها الصحية كان توجه العديد من الجزائريين للبحث عن الطمأنينة المفقودة وحل مشاكلهم، من خلال المزار، الذي أصبح ذا سلطة متعاضمة في اللاوعي والمخيال الشعبي بشكل جعله وسيطا بين الله والبشر 33 وكاننا فوق طبيعي "خزان للقداسة السماوية" 34، يملك القدرة على الضر والنفع، كما يملك البركة ويشفي الأمراض ويفك الكروب ولا تنتهي قدراته الخارقة بموته البيولوجي، مثلما لا تنقطع صلته بهذا العالم وأناسه (رجال البلاد) فهو يضل (الولي) حيا

حتى بعد أن يختفي جسده تحت الثرى في ضريحه، ويواصل التدخل والتوسط عند الله لقاصديه من الناس، ويحرص بالمقابل مسيروا الأضرحة وأحفاد الولي الذين يعيشون من وعلى رأسماله الرمزي على إشاعة قدراته وكراماته باستمرار.

لذلك فعادة ما تميزت علاقة الجزائري بالضريح بعلاقة أخذ وعطاء، حيث المرض عادة ما كان يستوجب زيارة الضريح ومعه تقام طقوس الزيارة وإخراج المعروف والنشرة. والتي من خلالها تلتمس البركة من الولي أو الجن أملا في الشفاء، وبالتالي بواسطة هذه الطقوس يتم الحوار مع العالم غير المرئي بهدف ترويض قواه المؤذية³⁵.

من جهة أخرى ارتبطت الخصوبة الزراعية وزمن القحط والجفاف المفضي للأزمات الغذائية ومن ثمة الصحية إلى إرتباط الجزائري بعوالم الأولياء، يلخص ذلك جاك بيرك في ربطه بين الممارسات المتعلقة بالزراعة، حيث تتشكل ضمنها عددا من الطقوس الاستعطافية والتمينية بالأولياء لترويض قوى الطبيعة لأجل الخصوبة³⁶.

كل هذا يعكس واقع الجزائري في تلك الفترة من الزمن التي فسرت فيها الكثير من الأزمات الصحية والطبيعية وأرجعت لمسبباتها من القوى الخفية واللامرئية.

3- الحاجة الصحية والتضامن الإجتماعي:

أفرزت التآزمات الصحية ومسبباتها من أمراض وأوبئة وجفاف وقحط إلى سلوك إجتماعي تضامني وسط الشعب الجزائري، تجسد ذلك عبر أنماط الفعل والتفكير والإحساس المتعالية عن إرادة الجزائري في قهر المصائب والبلاوي، فسلك بذلك مسلكا جماعي في الحياة يحاول التكافل والتآزر عبر ضمير جمعي ونموذج نفسي إتجاه الأزمات الصحية في مقابل التدبير الصحي والوقائي للفرد الجزائري، وقد استمد هذا التضامن العضوي قوته من الوازع الديني والأخلاقي والمصير المشترك للجزائريين، الذين حاولوا بكل قواهم تحقيق أسمى صور التضامن مع الإخوة لحظة الشدائد والمصائب والمجاعات، وكان من صور ذلك إمدادهم بالغذاء والعلاج والإيواء... ومن أهم نماذج ذلك نضرب المثال بمنطقة القبائل، التي برغم كل سياسات التفريق عن الوطن الأم، فإن أهلها قدموا أروع صور التكافل على لسان كلامجيران Clamageran الذي قال آنذاك: "عندما كانت المجاعة تؤدي بحياة السكان العرب في الشتاء الرهيب الذي عرفته البلاد في 1867 و1868، إلتجأ الألوف من المشردين الهائمين إلى منطقة القبائل، الكثير منهم لاقوا حتفهم في الطريق، نتيجة لما عانوه من عذاب، ولكن أهالي المنطقة عاملوهم جميعا بالحسنى، وأسعفوهم بالأدوية، وهكذا فلم يمت أحد منهم جوعا في منطقة القبائل³⁷.

والظاهر أن الجهود التضامنية رغم أهميتها في تمتين النسيج الإجتماعي في مقابل الفعل الإستعماري وعند حلول الكوارث الطبيعية، وما يعقبها من أوبئة، لم تفلح على ما يبدو في التطويق النهائي للأزمة وتلبية كل الحاجيات وتببيعات ذلك خصوصا الصحية، بفعل فداحة الخسائر البشرية والمادية، وما صاحب ذلك من انهيار ديموغرافي أحدثته الحرب والأوبئة الحاصلة حين ذاك.

ومعه اتسع هامش الجوع والفقر وعتباته، فلا غرابة أن تقتدرن مشكلة الوجود الصحي للجزائري ومطلبه في العيش برغم أنف فرنسا بسلوك غايته التحدي والاستجابة للظروف الاستثنائية التي أحدثتها الطبيعة والحضور الإستعماري، فخص جوانبه الغذائية بتقشف كبير كان في عديد مراته سوء تغذية (يأكل خبز الشعير واللبن وقليل من السكر والقهوة = زهد إلزامي) 38 اعتبارا من تناقص الحصص الغذائية للجزائري نتيجة لكل الظروف والمخاض السوسيو استعماري والاقتصاد الزراعي الذي عرف نكسات عديدة تحول معها الجزائري إلى فلاح بدون أرض وفلاحة بدون فلاحين³⁹ كما يقول Sayad وBourdieu.

من جهة أخرى كان تمسكه بشعائره الدينية وطقوسه الشعبية الوقائية في حياته اليومية عزاء له ومقاومة لراهنه المتآزم آنذاك، الذي جعله في أكثر أحيانه يتناول وجبات متكونة من حبوب متعفنة وقديمة الاختزان إضافة للأعشاب البرية، والتين البري، وعروق الأرض، والبلوط الذي أعتبر ملاذا

غذائيا في سنين الشدة والمجاعة (50%) من ساكنة بعض الجهات بالجزائر كما يقول *البير كامو* كانوا يعيشون على أكل بعض الأعشاب والبقول سنة 1939م 40، كما أكل الجزائريون الجلود وكل ما يمكنه ملاً الرمق، وشربوا من المياه الراكدة، يضاف لها مخلفات المستعمر وجرائمه، والتي خلفت في الأخير لوحة ملخصها ألوان متعددة من الحرمان والجوع والألم ومعه إنتهى الجزائري إلى وضع صحي أقل ما يوصف بالمتدهور جدا، في مقابل نعيم ورغد كان يعيشه المستوطن الأجنبي بالجزائر.

خلاصة:

من هذا الذي سبق ذكره تتجلى لنا حقيقة إدعاءات فرنسا كون حربها حضارية تعميرية للمجتمع الجزائري والطب أحد آلياتها، حيث واقع الجزائر يعكس وهن هذه الأطروحة الإستعمارية عن الحقيقة نظرا لكل المعانات التي عرفها الجسد الجزائري خلال الحقبة الإستعمارية، حيث لم يستكن هذا الجسد طيلة فترة 1830 إلى 1962م للأمراض والأوبئة والمجاعات، بل إنه حتى اليوم لا تزال الكثير من ممتلكات الجزائري وأوضاعه الصحية عرضة لبعض الأحداث والأمراض (الألغام، وإشعاعات النووية).

ومنه فإن أي إعتبار للطب الفرنسي كعامل إيجابي على صحة الجزائري هو أمر مغلوط وواهن بإعتبار أن الإستعمار في حد ذاته كان وباءا ومرضا على الجزائري، وكل الأحداث من أوبئة ومجاعات وأمراض التي أصابت الجزائري خلال تلك الفترة كانت فعل حاصل لسلوكات المستدمر وسياساته الإفئائية والإحاقية للجزائر بفرنسا وراء البحار، حيث سخر الطب وأصبح آلية من آليات مسخ الشخصية الجزائرية وتنصيرها وفرنستها ولكن ضمن إطار يضع الجزائري من الدرجة الرابعة والأخيرة.

الهوامش:

- 1- **بنحمادة سعيد**، الماء والإنسان في الأندلس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2007 ص225، 235، 237.
- 2- **أرنولد دافيد**، "الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية"، ترجمة فهمي مصطفى إبراهيم، عالم المعرفة، عدد 236، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص07.
- 3- **التميمي عبد المالك خلف**، "الإستيطان الأجنبي في الوطن العربي" دراسة تاريخية مقارنة، من مجلة عالم المعرفة، عدد 71، صادرة عن المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1978، ص21.
- 4- **ألفيي لوكور غرانميزون**، الإستعمار الإبادة "تأملات في الحرب والدولة الإستعمارية"، ترجمة بوزيدة نورة، دار الرائد للكتاب، 2007، ص 237.
- 5- **التميمي عبد المالك خلف**، نفس المرجع، ص 27.
- 6- **فيليب لوكا وجون كلود فاتان**، جزائر الأنثروبولوجيين "نقد السوسيوولوجيا الكولونيالية"، ترجمة يحياتن محمد وآخرون، منشورات الذكرى الأربعون للإستقلال، الجزائر 2002، ص252.
- 7- **أرنولد دافيد**، مرجع سابق، ص14.
- 8- **مبارك زكي**، "الطب الإستعماري من عمل إنساني إلى أداة للتسرب الإستعماري السلمي"، من أعمال الملتقى الدولي حول "الإستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي" المنعقد بين 02 و 03 جويلية 2006، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص110.
- 9- **الدقي نور الدين**، المغرب العربي والإستعمار الفرنسي، سراس للنشر، تونس، 1997، ص38.
- 10- نفس المرجع، ص39.
- 11- نفس المرجع، ص42.
- 12- نفس المرجع، ص61، 73.
- 13- **ألفيي لوكور غرانميزون**، مرجع سابق، ص 142.
- 14- نفس المرجع، ص 183.
- 15- نفس المرجع، ص 186.
- 16- نفس المرجع، ص 187.
- 17- نفس المرجع، ص 187- 188.
- 18- **ألفيي لوكور غرانميزون**، مرجع سابق، ص 200.
- 19- **السويدي محمد**، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990، ص66.

- 20- أليفبي لوكور غرانمزيون، نفس المرجع، ص 117.
- 21- نفس المرجع، ص 75.
- 22- نفس المرجع، ص 78.
- 23- نفس المرجع، ص 79.
- 24- أليفبي لوكور غرانمزيون، نفس المرجع السابق، ص 85.
- 25- نفس المرجع، ص 89-93.
- 26- نفس المرجع، ص 97.
- 27- بكوش الهادي، "الإستعمار والمقاومة بين الأمس واليوم"، من أعمال الملتقى الدولي حول "الإستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي"، نفس المرجع السابق، ص 33-34.
- 28- فركوس صالح، تاريخ الجزائر، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 391.
- 29- مبارك زكي، مرجع سابق، ص 112-114.
- 30- الدقي نور الدين، مرجع سابق، ص 130.
- 31- وعراب محمد، "المعتقدات السحرية في المغرب"، www.aslimnet.fr، www.alargam.com، تمت زيارة الموقع يوم 26-2006-04.
- 32- بنحمادة سعيد، مرجع سابق، ص 243.
- 33- طوالي نور الدين، الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة البعيني وجيه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1988، ص 95.
- 34- منديب عبد الغني، الدين والمجتمع "دراسة سوسولوجية للدين بالمغرب"، نشر إفريقيا الشرق، 2006، ص 46.
- 35- طوالي نور الدين، نفس المرجع، ص 128-131.
- 36- منديب عبد الغني، نفس المرجع، ص 48.
- 37- الأشرف مصطفى، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة بن عيسى حنفي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 15-16.
- 38- عدي الهواري، الإستعمار الفرنسي في الجزائر، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، ط1، 1983، ص 94.
- 39- Bourdieu.p et Sayad. A.m, le Déracinement ; « la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie, éditions de minuit, Paris, 1964, pp 99, 117
- 40- بوحوش عمار، العمال الجزائريون في فرنسا، "دراسة تحليلية"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 151